# الثقافة والعلم أساس الحضارة والاستقلال

## ١

الموضوع الذى أريد أن أدير فيه هذا الحديث هو مستقبل الثقافة فى مصر التى ردت إليها الحرية بإحياء الدستور ، وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال . فنحن نعيش فى عصر من أخص ما يوصف به أن الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم ، وإنما هما وسيلة إلى أغراض أرقى منهما وأبقى ، وأشمل فائدة وأعم نفعًا .

وقد كانت شعوب كثيرة من الناس فى أقطار كثيرة من الأرض تعيش حرة مستقلة ، فلم تغن عنها الحرية شيئًا ، ولم يجد عليها الاستقلال نفعًا ، ولم تعصمها الحرية والاستقلال من أن تعتدى عليها شعوب أخرى تستمتع بالحرية والاستقلال ، ولكنها لا تكتفى بهما ولا تراهما غايتها القصوى ، وإنما تضيف إليهما شيئًا آخر أو أشياء أخرى .

تضيف إليهما الحضارة التى تقوم على الثقافة والعلم ، والقوة التى تنشأ عن الثقافة والعلم ، والثروة التى تنتجها الثقافة والعلم . ولولا أن مصر قصرت طائعة أو كارهة فى ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ، ولما أضاعت استقلالها ، ولما احتاجت إلى هذا الجهاد العنيف الشريف لتسترد الحرية وتستعيد الاستقلال .

وليس من النافع أن نندم على ما فات ، ولا من الممكن أن نستدرك ما كان ، بل من الخير الذى يشحذ العزم ويقوى الأمل ، أن نفكر فيما أتيح لنا من الفوز ، ونبتهج بما كتب لنا من الظفر ، فى هذا الجهاد الطويل الشاق الذى انتهى بنا إلى أن نسترد الاستقلال ، ونحمل العالم المتحضر على أن يعرفه لنا ، ويؤمن لنا به ، ويتلقانا فى عصبة الأمم كما يتلقى الأمم الحرة الكريمة .

من الخير أن نغتبط بهذا ونبتهج له ، ولكن على ألا نكتفى بالاغتباط والابتهاج ، وعلى ألا نشغل بالفرح عن النشاط ، وألا يصرفنا الأمل عن العمل ، وألا نقف أمام الاستقلال والحرية موقف المعجبين بهما المطمئنين إليهما . إنما نأخذهما كما تأخذهما الأمم

الراقية على أنهما وسيلة إلى الكمال وسبب من أسباب الرقى ، لا يكفان عن العمل وإنما يدفعان إليه ، ولا يحدان الأمل ، وإنما يمدانه ويزيدانه قوة وسعة وانبساطًا .

وما أعرف أنى أشفقت من شىء كما أشفق من الاستقلال بعد أن كسبناه ، ومن الحرية بعد أن ظفرنا بها ! أشفق منهما لأنى أخشى أن يغرانا عن أنفسنا ، ويخيلا إلينا أننا قد وصلنا إلى آخر الطريق حين وصلنا إليهما ، مع أننا لم نزد على أن ابتدأنا بهما الطريق .

وأشفق منهما لأنهما يحملاننا تبعات جسامًا حقا ، أمام أنفسنا أولا ، وأمام العالم المتحضر ثانيًا .

وأنا أخاف أشد الخوف ألا نقدر هذه التبعات ، أو ألا نقدرها حق قدرها . أخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا ، فنهمل مرافقنا ، أو نأخذها فى غير حزم ولا جد ، فنتأخر ونحن خليقون أن نتقدم ، وننحط ونحن خليقون أن نرقى ، ويعود الاستقلال والحرية علينا بالشر ، وهما خليقان ألا يعودا علينا إلا بالخير كل الخير .

وأخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا ، وعلينا من الأوربيين عامة ومن أصدقائنا الانجليز خاصة ، رقباء يحصون علينا الكبيرة والصغيرة ويحاسبوننا على اليسير والعظيم . ولعلهم أن يكبروا من أغلاطنا ما نراه صغيرًا ، وأن يعظموا من تقصيرنا ما نراه هينًا ، وأن يقولوا : طالبوا بالاستقلال وأتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس فى المطالبة به حتى إذا انتهوا إليه لم يذوقوه ولم يسيغوه ولم يعرفوا كيف ينتفعون به .

أخشى هذا كله ، وأريد كما يريد كل مصرى مثقف ، يحب وطنه ، ويحرص على كرامته ، وحسن رأى الناس فيه ، أن تكون حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم ، وأن يكون نشاطنا الحديث محققًا لرأينا فى أنفسنا حين كنا نطالب بالاستقلال ، ومحققًا لرأى الأمم المتحضرة فينا حين رضيت لنا عن هذا الاستقلال ، وحين أظهرت لنا ما أظهرت من الترحيب وحسن اللقاء فى جنيف .

نعم وأريد كما يريد كل مصرى مثقف ، محب لوطنه ، حريص على كرامته ، ألا نلقى الأوربى فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا ، وما يضطرنا إلى أن نزدرى أنفسنا ، ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء .

إن أبغض شيء إلى الرجل الكريم الذى يشعر بالعزة والكرامة ويحرص عليهما أن يرى نفسه مضطرا إلى أن يعترف بأنه لم يصبح بعد لهما أهلا .

فليحرص كل مصرى على أن يجنب نفسه وأمته هذا الخزى . وسبيل ذلك أن نأخذ أمورنا بالحزم والجد منذ اليوم ، وأن نعرض عن الألفاظ التى لا تغنى ، إلى الأعمال التى تغنى ، وأن نبدأ فى إقامة حياتنا الجديدة من العمل الصادق النافع على أساس متين .

obeikandl.com

# مُسْتَقْبَلُ الثقافَةِ بِمصْرَ مُرتَبِطٌ بِمَاضِيها البَعيد

## ٢

وأنا من أشد الناس زهدًا فى الوهم ، وانصرافًا عن الصور الكاذبة التى لا تصور شيئًا . وأنا مقتنع بأن الله وحده هو القادر على أن يخلق شيئًا من لا شىء .

فأما الناس فإنهم لا يستطيعون ذلك ولا يقدرون عليه . وأنا من أجل هذا مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتكر ابتكارًا ، ولن تخترع اختراعًا ، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة ، وبأن مستقبل الثقافة فى مصر لن يكون إلا امتدادًا صالحًا راقيًا ممتازًا لحاضرها المتواضع المتهالك الضعيف .

ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر فى مستقبل الثقافة فى مصر إلا على ضوء ماضيها البعيد ، وحاضرها القريب . لأننا لا نريد ولا نستطيع أن نقطع ما بيننا وبين ماضينا وحاضرنا من صلة . وبمقدار ما نقيم حياتنا المستقبلة على حياتنا الماضية والحاضرة نجنب أنفسنا كثيرًا من الأخطار التى تنشأ عن الشطط وسوء التقدير والاستسلام للأوهام ، والاسترسال مع الأحلام .

ولكن المسألة الخطيرة حقا ، والتى لابد من أن نجليها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك ، وتعصمها من كل لبس ، وتبرئها من كل ريب هى أن نعرف : أمصر من الشرق أم من الغرب ! وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى ، وإنما أريد الشرق الثقافى والغرب الثقافى . فقد يظهر أن فى الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف ، ويتصل بينهما صراع بغيض ، ولا يلقى كل منهما صاحبه إلا محاربًا أو متهيئًا للحرب . أحد هذين النوعين هذا الذى نجده فى أوروبا منذ العصور القديمة ، والآخر هذا الذى نجده فى أقصى الشرق منذ العصور القديمة أيضًا .

وقد نستطيع أن نضع هذه المسألة وضعًا واضحًا قريبًا يدنيها إلى الأذهان ويسرها على الألباب . فهل العقل المصرى شرقى التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء ، أم هل هو غربى التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء ! وبعبارة موجزة جلية :

أيهما أيسر على العقل المصرى : أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى ، أو أن يفهم الرجل الفرنسى أو الانجليزى !

هذه هى المسألة التى لابد من توضيحها وتجليتها ، قبل أن نفكر فى الأسس التى ينبغى أن نقيم عليها ما ينبغى لنا من الثقافة والتعليم .

ويخيل إلى أن أيسر الوسائل إلى توضيح هذه المسألة وتجليتها إنما هو الرجوع إلى تاريخ العقل المصرى منذ أقدم عصوره ، ثم مسايرة هذا العقل فى تاريخه الطويل الشاق الملتوى إلى الآن . وأول ما نلاحظه فى تاريخ الحياة المصرية أننا لا نعرف أن قد كان بينها وبين الشرق البعيد صلات مستمرة منظمة من شأنها أن تؤثر فى تفكيرها ، أو فى سياستها ، أو فى نظمها الاقتصادية .

وما أظن أن علماء التاريخ المصرى القديم يستطيعون أن يدلونا على آثار أو نصوص تشهد بوجود هذه الصلات المستمرة المنظمة بين مصر فى عصورها الأولى وبين الشرق الأقصى . ولعل أقصى ما يستطيعون أن يتحدثوا به إلينا فى ذلك إنما هى محاولات يكاد ينم عنها التاريخ فى آخر العصر الفرعونى ، تظهر ميل المصريين إلى أن يستكشفوا سواحل البحر الأحمر مبعدين فى ذلك بعض الشىء ، ولكن فى شىء من الحذر والاحتياط والاستحياء . وما أظن أنهم تجاوزوا بذلك بعض المطامع الاقتصادية التى كانت تثيرها فى نفوسهم بعض غلات الهند وبلاد العرب الجنوبية . فهم من هذه الناحية قد حاولوا شيئًا ، ولكنهم لم يمضوا ولم يبعدوا ، ولم ينظموا أى نوع من أنواع المواصلات التى يمكن أن تؤثر تأثيرًا عميقًا فى التفكير والسياسة والاقتصاد .

وما أظن أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية تجاوزت هذا الشرق القريب الذى نسميه فلسطين والشام والعراق ، أى هذا الشرق الذى يقع فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وليس من شك فى أن الصلة بين المصريين القدماء وبين هذه الأقطار من الشرق القريب كانت قوية مستمرة منظمة إلى حد بعيد ، وكانت بالغة الأثر فى الحياة العقلية والسياسية والاقتصادية لهذه البلاد كلها . فأساطير المصريين تنبئنا بأن آلهتهم قد تجاوزوا الحدود المصرية ، وذهبوا يحضرون الناس فى أقطار الشرق هذه . وتاريخ المصريين ينبئنا بأن ملوك مصر قد بسطوا سلطانهم على هذه الأقطار أحيانًا ، كما يحدثنا بأن مصر قد تعرضت لبعض الخطر السياسى فى هذه البلاد .

والتاريخ المصرى القديم يحدثنا أيضًا ، بأن مصر كانت فى تلك العصور قوة أساسية من قوى التوازن السياسى الاقتصادى ، لا بالقياس إلى هذه البلاد وحدها بل بالقياس إلى بلاد أخرى كانت مهدًا لهذه الحضارة الأوربية التى نريد أن نعرف ما يمكن أن يكون بينها وبيننا من صلة .

ومن إضاعة الوقت ، وإنفاق الجهد فى غير طائل ، أن نفصل ما كان من العلاقات بين مصر وبين الحضارة الايجية القديمة ، وما كان من العلاقات بين مصر وبين الحضارة اليونانية فى عصورها الأولى ، ثم ما كان من العلاقات بين مصر وبين الحضارة اليونانية فى عصور ازدهائها وازدهارها ، منذ القرن السادس قبل المسيح إلى أيام الاسكندر .

والتلاميذ يتعلمون فى المدارس أن مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جدا ، وأن المستعمرات اليونانية قد أقرها الفراعنة فى مصر قبل الألف الأول قبل المسيح .

والتلاميذ يتعلمون فى المدارس أيضًا أن أمة شرقية بعيدة عن مصر بعض الشىء قد أغارت عليها وأزالت سلطانها فى آخر القرن السادس قبل المسيح ، وهى الأمة الفارسية . فلم تذعن مصر لهذا السلطان الشرقى الأجنبى إلا كارهة ، وظلت تقاومه أشد المقاومة وأعنفها مستعينة على ذلك بمتطوعة اليونان حينًا ، وبمحالفة المدن اليونانية حينًا آخر ، حتى كان عصر الاسكندر .

ومعنى هذا كله واضح جدًا : وهو أن العقل المصرى لم يتصل بعقل الشرق الاقصى اتصالا ذا خطر ، ولم يعش عيشة سلم وتعاون مع العقل الفارسى ، وإنما عاش معه عيشة حرب وخصام .

معنى ذلك أيضًا أن العقل المصرى قد اتصل ، من جهة بأقطار الشرق القريب اتصالا منظمًا مؤثرًا فى حياته ومتأثرًا بها ، واتصل ، من جهة أخرى ، بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى ، اتصال تعاون وتوافق ، وتبادل مستمر منظم للمنافع ، فى الفن والسياسة والاقتصاد .

ومعنى هذا كله آخر الأمر بديهى ، يبتسم الأوربى حين ننبئه به لأنه عنده من الأوليات ، ولكن المصرى والشرقى العربى يلقيانه بشىء من الانكار والازورار ، يختلف باختلاف حظهما من الثقافة والعلم وهو : أن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط .

# العَقْلُ المِصْرىّ وَالعَقْلُ اليُونَانىّ وَتَأثُّر كُل مِنْهُمَا بِالآخَر
## ٣

ولسنا فى حاجة إلى أن نقيم الأدلة على شىء من هذا ، فهذا كله أيسر من أن يحتاج إلى أن يقام عليه الدليل . والتلاميذ عندنا يتعلمونه فى مدارسهم والكتب التعليمية اليسيرة تذيعه لمن شاء أن يظهر عليه .

وهناك شىء آخر ليس أقل من هذا يسرًا ولا وضوحًا ، وهو : أن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئًا يشرف به اليونان ، ويتمدحون به فيما يقولون من شعر ، وفيما يكتبون من نثر . فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين ، وهى مذكورة أحسن الذكر فى شعر الممثلين اليونانيين ، ثم هى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودوت وممن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة .

وكان اليونان فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص .

ثم جاء التاريخ فلم يكذب شيئًا من هذا ولم يضعفه ، بل أيده وقواه ، فالتأثير المصرى فى فنون العمارة والنحت والتصوير عند اليونان شىء لا يجحد ولا يمارى فيه . والتأثير المصرى يتجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تمس الفنون التطبيقية ، وتمس الحياة العملية اليومية ، وقد تمس السياسة أيضًا .

ومن الحق أن نعترف بأن مصر لم تنفرد بالتأثير فى حياة اليونان ، ولا فى تكوين الحضارة اليونانية والعقل اليونانى ، وإنما شاركتها فى ذلك أمم شرقية أخرى ، كان لها حظ موفور من الحضارة والرقى ، وهى هذه الأمم التى كانت تعمر هذا الشرق القريب .

هذه الأمم التى كانت كمصر مهدًا للحضارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وكما أن اليونان يعرفون الفضل لمصر فى تكوين حضارتهم ، فهم يعرفون الفضل للكلدانيين وغيرهم من هذه الشعوب الأسيوية التى تأثرت بالبحر الأبيض المتوسط .

فإذا أردنا أن نلتمس المؤثر الأساسى فى تكوين الحضارة المصرية ، وفى تكوين العقل المصرى ، وإذا لم يكن بد من اعتبار البيئة فى تقدير هذا المؤثر ، فمن اللغو والسخف أن نفكر فى الشرق الأقصى أو فى الشرق البعيد ، ومن الحق أن نفكر فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى الظروف التى أحاطت به ، والأمم التى عاشت حوله .

وإذًا فالعقل المصرى القديم ليس عقلا شرقيًا إذا فهم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار . وقد نشأ هذا العقل المصرى فى مصر متأثرًا بالظروف الطبيعية والإنسانية التى أحاطت بمصر وعملت فى تكوينها ، ثم نما وربا ، وأثر فى غير الشعب المصرى من الشعوب المجاورة ، وتأثر بها ، وكان من أشد الشعوب تأثرًا بهذا العقل المصرى أولا ، وتأثيرًا فيه بعد ذلك العقل اليونانى .

فإذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصرى نقره فيها ، فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم . وقد كان العقل المصرى أكبر العقول التى نشأت فى هذه الرقعة من الأرض سنا ، وأبلغها أثرا .

كل هذه أوليات لا معنى لإضاعة الوقت فى إثباتها ، وإقامة الأدلة عليها . فقد فرغ الناس من ذلك منذ عهد بعيد . ولكن الغريب أنهم برغم ذلك يستخلصون من هذه الحقائق الواضحة نتائج تناقضها كل المناقضة ، وتباينها كل المباينة ، وتبعد عنها أشد البعد . فأما المصريون أنفسهم فيرون أنهم شرقيون . وهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافى اليسير وحده ، بل معناه العقلى والثقافى . فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندى والصينى واليابانى منهم إلى اليونانى والإيطالى والفرنسى . وقد استطعت أن أفهم كثيرًا من الخطأ ، وأسيغ كثيرًا من الغلط وأفسر كثيرًا من الوهم ، ولكنى لم أستطع قط ، ولن أستطيع فى يوم من الأيام ، أن أفهم هذا الخطأ الشنيع أو أسيغ هذا الوهم الغريب .

ومهما أنس فلن أنسى مواقف الحيرة والعجز عن الفهم التى كنت أقفها منذ أعوام ، أمام جماعة كانت تقوم فى مصر ، وكانت تسمى نفسها جماعة الرابطة الشرقية ، وكانت تذهب فى سيرتها وتفكيرها هذا المذهب الغريب ، مؤثرة التضامن مع أهل الشرق الأقصى على التضامن مع أهل الغرب الأدنى . وأنا أفهم فى وضوح ، بل فى بداهة ، أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى ، لا لاتحاد اللغة والدين فحسب ، بل للجوار الجغرافى ، وتقارب النشأة والتطور التاريخى . فأما أن نتجاوز هذا الشرق القريب إلى ما وراءه ، فلا أفهم أن يقوم الأمر فيه على الوحدة العقلية ، أو على التقارب التاريخى .

وإنما أفهم أن يقوم على الوحدة الدينية ، أو على تبادل بعض المنافع المؤقتة التى تتصل بالسياسة والاقتصاد .

ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول .

فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسًا للملك وقوامًا للدولة . وليس المهم أن يكون هذا حسنًا أو قبيحًا . وإنما المهم أن يكون حقيقة واقعة . وما أظن أحدًا يجادل فى أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضًا ، قبل أن ينقضى القرن الثانى للهجرة ، حين كانت الدولة الأموية فى الأندلس تخاصم الدولة العباسية فى العراق .

وقد مضى المسلمون بعد ذلك فى إقامة سياستهم على المنافع ، وعلى المنافع وحدها ، إلى أبعد حد ممكن . فلم يأت القرن الرابع للهجرة حتى قام العالم الإسلامى مقام الدولة الإسلامية ، وحتى ظهرت القوميات ، وانتشرت فى البلاد الإسلامية كلها دول كثيرة ، يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية ، ويقوم بعضها الآخر على ألوان أخرى من المنافع ، تختلف قوة وضعفًا باختلاف الأقاليم والشعوب ، وحظ هذه الأقاليم والشعوب من قوة الشخصية والقدرة على الثبات والمقاومة .

وكانت مصر من أسبق الدول الإسلامية إلى استرجاع شخصيتها القديمة التى لم تنسها فى يوم من الأيام . فالتاريخ يحدثنا بأنها قاومت الفرس أشد المقاومة وبأنها لم تطمئن إلى المقدونيين حتى فنوا فيها ، وأصبحوا من أبنائها ، واتخذوا تقاليدها وسننها لهم تقاليد وسننًا .

والتاريخ يحدثنا كذلك بأنها قد خضعت لسلطان الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر ، ومقاومة متصلة ، فاضطر القياصرة إلى أخذها بالعنف ، وإخضاعها للحكم العرفى .

والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها عن السلطان العربى بعد الفتح لم يبرأ من السخط ، ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون ، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده .

فالمسلمون إذًا قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة ، وهو : أن السياسة شيء والدين شيء آخر ، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أى شيء آخر .

وهذا التصور هو الذى تقوم عليه الحياة الحديثة فى أوربا . فقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى ، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية ، لا على الوحدة المسيحية ، ولا على تقارب اللغات والأجناس .

لنعد إلى ما كنا فيه منذ حين ، فنلاحظ مرة أخرى أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الأقصى ، ولا بالشرق البعيد ، قليلاً ولا كثيرًا ، وإنما نشأ مصريا ، ثم أثر فيما حوله وتأثر به . ولكن المصريين كما قلنا يعرضون عن هذه الأوليات ، ويرون أنفسهم شرقيين . فإذا سئلوا عن معنى هذه الشرقية لم يحققوها ، ولم يصلوا منها إلى شيء . وأما الأوربيون فهم كالمصريين يقررون هذه الأوليات فى كتبهم ، ويعلمونها فى مدارسهم ، ويبذلون الجهـود الخصبة الشاقة فى تحقيق الصلات بين المصريين القدماء والحضارة اليونانية التى هى أصل حاضرتهم ثم هم بعد هذا كله يعرضون عن الحق ، ويتجاهلون هذه الأوليات ، ويرون فى سيرتهم وسياستهم أن مصر جزء من الشرق ، وأن المصريين فريق من الشرقيين . وليس من المهم ولا من النافع الآن أن نبحث عن مصدر هذا التعنت الأوربى الذى يرجع إلى السياسة وإلى المنافع قبل كل شيء. وإنما المهم أن نمضى فى هذه الملاحظة التاريخية حتى يثبت لنا فى وضـوح وجلاء أن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءا من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين .

# شدَّةُ اتصالِ مِصْرَ باليُونَان فى القَدِيم

## ٤

كان العقل المصرى إذًا إلى أيام الإسكندر مؤثرًا فى العقل اليونانى متأثرًا به ، مشاركًا له فى كثير من خصاله إن لم يشاركه فى خصاله كلها .

فلما كان فتح الإسكندر للبلاد الشرقية ، واستقرار حلفائه فى هذه البلاد ، اشتد اتصال الشرق بحضارة اليونان ، واشتد اتصال مصر بهذه الحضارة بنوع خاص ، وأصبحت مصر دولة يونانية أو كاليونانية ، وأصبحت الإسكندرية عاصمة من عواصم اليونان الكبرى فى الأرض ، ومصدرا من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم ، بل أعظم مصدر لهذه الثقافة فى ذلك الوقت . ومن المحقق أن الثقافة اليونانية ، على اختلاف فروعها وألوانها ، قد لجأت إلى مصر فوجدت فيها ملجأ أمينا وحصنا حصينا وظفرت فيها من النمو والانتشار بما لم تظفر بمثله ، حين كانت مستقرة فى أثينا أو فى غيرها من المدن اليونانية الأوربية أو الأسيوية .

ونظرة يسيرة فى أيسر الكتب التى تدرس التاريخ السياسى والثقافى فى ذلك العصر تبين فى وضوح لا يحتمل الشك أن مدينة الإسكندر لم تكن مدينة شرقية بالمعنى الذى يفهم الآن من هذه الكلمة ، وإنما كانت مدينة يونانية بأدق معانى هذه الكلمة وأصدقها وأجلاها .

ومن الإطالة فى غير نفع ولا غناء أن نتحدث عن الفلسفة الإسكندرية التى نشأت عن هذا الاتصال الشديد المتين بين العقل المصرى والعقل اليونانى ، والتى كان لها أبعد الأثر وأقواه فيما أتيح للإنسانية من حضارة ، ثم خضعت مصر لسلطان الروم فلم يمنعها ذلك من أن تظل ملجأ للثقافة اليونانية طوال العصر الرومانى ، كما أن خضوع بلاد اليونان نفسها لسلطان الرومان لم يجردها من يونانيتها ، وإنما فرض هذه اليونانية على الرومانيين أنفسهم .

# تَشَابُهُ الإسْلامِ وَالمسيحِيَّةِ فى عَلاقَتِهِمَا بالفَلْسَفَة

## ٥

وجاء الإسلام وانتشر فى أقطار الأرض ، وتلقته مصر لقاء حسنًا ، وأسرعت إليه إسراعًا شديدًا ، فاتخذته لها دينًا ، واتخذت لغته العربية لها لغة . فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى ، وهل جعلها ذلك أمة شرقية بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة الآن !

كلا ! لأن المسيحية التى ظهرت فى الشرق قد غمرت أوروبا ، واستأثرت بها دون غيرها من الديانات ، فلم تصبح أوربا شرقية ولم تتغير طبيعة العقل الأوربى . وإذا كان فلاسفة أوربا وقادة الرأى الحديث فيها يعدون المسيحية عنصرًا من عناصر العقل الأوربى فلست أدرى ما الذى يفرق بين المسيحية والإسلام وكلاهما قد ظهر فى الشرق الجغرافى ، وكلاهما قد نبع من منبع كريم واحد ، وهبط به الوحى من لدن إله واحد يؤمن به الشرقيون والغربيون على السواء !

وكيف يستقيم للعقل السليم والرأى المنصف أن يقرأ الأوروبيون الإنجيل فلا يرون به بأسًا على العقل الأوربى ، ولا يرون أنه ينقل هذا العقل من الغرب إلى الشرق ، فإذا قرأوا القرآن رأوه شرقيا خالصًا مع أن القرآن كما يقول فى غير عوج ولا التواء إنما جاء متممًا ومصدقًا لما فى الإنجيل !

إذا صح أن المسيحية لم تمسخ العقل الأوربى ، ولم تخرجه عن يونانيته الموروثة ، ولم تجرده من خصائصه التى جاءته من إقليم البحر الأبيض المتوسط ، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير العقل المصرى ، أو لم يغير عقل الشعوب التى اعتنقته والتى كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط ، بل يجب أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول مطمئنين : أن انتشار الإسلام فى الشرق البعيد ، وفى الشرق الأقصى ، قد مد سلطان العقل اليونانى وبسطه على بلاد لم يكن قد زارها إلا لمامًا ، ولم يستطع أن يستقر فيها استقرارًا متصلا إلا بعد أن استقر فيها الإسلام .

وما كان الأوربيون ليجادلوا فى ذلك أو ينكروه لو أن المسيحية انتشرت فى الشرق البعيد والشرق الأقصى منذ العصور الأولى كما انتشر فيهما الإسلام .

وأغرب من هذا أن بين الإسلام والمسيحية تشابهًا فى التاريخ عظيمًا . فقد اتصلت المسيحية بالفلسفة اليونانية قبل ظهور الإسلام فأثرت فيها وتأثرت بها . وتنصرت الفلسفة ، وتفلسفت النصرانية . ثم اتصل الإسلام بهذه الفلسفة اليونانية فأثر فيها وتأثر بها . وأسلمت الفلسفة اليونانية وتفلسف الإسلام .

وتاريخ الديانتين واحد بالقياس إلى هذه الظاهرة . فما بال اتصال المسيحية بالفلسفة يجعلها مقومًا من مقومات العقل الأوربى ، وما بال اتصال الإسلام بهذه الفلسفة نفسها لا يجعله مقومًا من مقومات هذا العقل ؟

جوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها . واتصال الإسلام بالفلسفة اليونانية هو اتصال المسيحية بالفلسفة اليونانية . فمن أين يأتى التفريق بين ما لهاتين الديانتين من الأثر فى تكوين العقل الذى ورثته الإنسانية عن شعوب الشرق القريب وعن اليونان ؟

بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا . فقد أغارت على أوربا اليونانية الرومانية أمم جاهلة لاحظ لها من حضارة ، ولا من ثقافة ، ولا من دين صحيح ، فأفسدت عليها أمرها إفسادًا شديدًا ، وعرضت حضارتها لخطر عظيم ، وكادت تطفىء سراج ذلك العقل اليونانى الذى كان يضىء فيها قبل انهيار الامبراطورية الرومانية . وهى على كل حال قد هزمت هذا العقل هزيمة منكرة ، واضطرته إلى بعض الأديرة . وفى أثناء ذلك كان الإسلام يترجم الفلسفة اليونانية ويذيعها وينميها ويضيف إليها ، ثم ينقلها إلى أوربا فتترجم إلى لغتها اللاتينية ، وتشيع الحياة فى العقل الأوربى ، وتبعث فيه القوة والنشاط ، وتمكنه من أن يعود إلى الاشراق والتألق ، فى القرن الثانى عشر بعد المسيح . فما بال اتصال أوربا بالثقافة اليونانية إبان النهضة يعد من مقومات هذا العقل ، وما بال اتصال العقل الأوربى بهذه الثقافة اليونانية نفسها من طريق المسلمين لا يعد من مقومات هذا العقل ؟ وما بال اتصال الإسلام نفسه بالفلسفة اليونانية فى عصوره الأولى لا يعد من مقومات هذا العقل ، ولا يلغى ما يمكن أن يكون من الفروق بين الأمم التى تعيش فى شرق بحر الروم والأمم التى تعيش فى غرب هذا البحر نفسه ؟

ولقد سمعت منذ أعوام محاضرة ألقاها المؤرخ البلجيكى العظيم بيرين فى الجمعية الجغرافية وفى ظل كلية الآداب ، فإذا هو يعلن فى هذه المحاضرة أشياء لم يلتفت إليها الناس يومئذ ، ولكنها تركت فى نفسى أثرًا عميقًا .

كان يعلن أن إغارة الأمم المتبربرة على أوربا لم تكن لتردها إلى الجهل الذى ردت إليه فى القرون الوسطى لو أن العلاقات البحرية ظلت متصلة بين الشرق والغرب . ولكن ظهور الإسلام ، وقيام الخصومة بينه وبين المسيحية ، قد قطع هذه العلاقات حينًا من الدهر ، فاضطرت أوربا إلى الفقر والبؤس ، وانتهى ذلك بها إلى الضعف الاقتصادى ، ثم إلى الجهل العميق فلما استؤنفت الصلات بين الشرق والغرب نشطت أوربا من عقالها ، وخرجت من الفقر إلى الغنى ، ومن الجهل إلى المعرفة ، ومن الظلمة إلى النور .

ومعنى ذلك عندى وعند بيرين فيما أظن أن قوام الحياة العقلية فى أوربا إنما هو اتصالها بالشرق عن طريق البحر الأبيض المتوسط . فما بال هذا البحر ينشئ فى الغرب عقلا ممتازًا متفوقًا ، ويترك الشرق بلا عقل ، أو ينشئ فيه عقلا منحطا ضعيفا ؟ وما بال العقل الذى ينشئه البحر نفسه على ساحله الشرقى ، وما بال الفلسفة اليونانية التى نشأت ونمت على الساحل الشرقى لبحر الروم فى العصور القديمة وفى القرون الوسطى ، لا تؤثر فى عقول أصحابها شيئًا فإذا أرسلوها إلى غرب هذا البحر خلقت أهل هذا الغرب خلقا جديدا ؟

كلا ليس بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم ، وتأثرت به ، فرق عقلى أو ثقافى ما . وإنما هى ظروف السياسة والاقتصاد تديل من أهل هذا الساحل لأهل ذلك الساحل ، وإنما هى ظروف السياسة والاقتصاد تدور بين هذه الشعوب مواتية هذا الفريق ، ومعادية ذلك الفريق . .

فلا ينبغى أن يفهم المصرى أن بينه وبين الأوربى فرقًا عقليا قويا أو ضعيفًا . ولا ينبغى أن يفهم المصرى أن الشرق الذى ذكره كيبلنج فى بيته المشهور (الشرق شرق ، والغرب غرب ولن يلتقيا) يصدق عليه أن على وطنه العزيز . ولا ينبغى أن يفهم المصرى أن الكلمة التى قالها إسماعيل وجعل بهـا مصر جزءًا من أوربا ، قد كنت فنا من فنون التمدح ، أو لونًا من ألوان المفاخر . وإنما كانت مصر دائمًا جزءًا من أوربا ، فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها.

# العَقْلُ الإسْلامىّ كَالعَقْلِ الأوربىّ

## ٦

نعم قد عدت على أهل الشرق القريب عواد ، وألمت بهم ملمات قطعت الصلة بينهم وبين أوربا حينًا ، وأفسدت عليهم أمرهم إفسادًا عظيمًا ، ومكنت لأوربا من أن تمضى فى نهضتها حتى تقطع فى سبيل الرقى شوطًا بعيدًا ، على حين أخذ هذا الشرق القريب ينحط ، ويسرف فى الانحطاط ، حتى كاد يفقد شخصيته العقلية . ثم أفاقت مصر ، وأفاق معها الشرق القريب ، فإذا أوربا قد بلغت من الرقى حظا عظيمًا ، وبسطت سلطانها على أعظم أقطار الأرض . وكان ذلك حين أغار العنصر التركى على هذه الأقطار الإسلامية فى حوض بحر الروم ، فردها إلى الانحطاط بعد الرقى ، وإلى الجهالة بعد العلم ، وإلى الضعف بعد القوة . ومحا أو كاد يمحو منها أعلام الحضارة ، وقطع الصلة بينها وبين أوربا دهرًا . ولكن يجب أن نلاحظ شيئين : أحدهما أن مثل هذه الظاهرة قد ألمت بأوربا فى أول القرون الوسطى حين أغار البرابرة عليها فحرموها مزايا الحضارة اليونانية الرومانية . فما بال هذه الظاهرة لم تجرد أوربا من عقلها اليونانى ، وما بالها تجرد الشرق القريب من هذا العقل نفسه ؟ وما بال إغارة الترك على الشرق القريب تغير طبيعة العقل فيه ، على حين لم تتغير طبيعة العقل فى أوربا حين أغارت عليها الأمم المتبربرة ، وقد اعتنق الترك دين الشرق القريب وحضارته كما اعتنقت الأمم المتبربرة دين الغرب وحضارته ؟

والشىء الثانى الذى لابد من ملاحظته هو أن فى هذا الشرق القريب بلدًا قد ثبت لغارة الترك ، وحمى منها الحضارة والعقل والتراث الإسلامى وإن كان قد لقى من هذه الغارة شرا كثيرًا .

وهذا البلد هو مصر ، التى آوت الإسلام وعلومه وحضارته وتراثه المجيد ، فحفظتها كنزًا مدخرًا ، حتى إذا أتيحت لها الفرصة أخذت ترد هذا الكنز إلى الشرق والغرب جميعًا . فما بال قوم ينكرون على مصر حقها فى أن تفاخر بأنها حمت العقل الإنسانى مرتين : حمته حين آوت فلسفة اليونان وحضارته أكثر من عشرة قرون ، وحمته حين آوت الحضارة الإسلامية وحمتها إلى هذا العصر الحديث ؟

وإذًا فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوربى يمتاز من العقل الشرقى الذى يعيش فى مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب . وإنما هو عقل واحد ، تختلف عليه الظروف المتباينة المتضادة فتؤثر فيه آثارًا متباينة متضادة . ولكن جوهره واحد ليس فيه تفاوت ولا اختلاف .

وقد ذكرت فى غير هذا الموضع أن الكاتب الفرنسى المعروف بول فاليرى أراد ذات يوم أن يشخص العقل الأوربى فرده إلى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن ، وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه ، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان . فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامى فى مصر وفى الشرق القريب أفتراه ينحل إلى شيء آخر غير هذه العناصر التى انتهى إليها تحليل بول فاليرى ؟

خذ نتائج العقل الإسلامى كلها . فستراها تنحل إلى هذه الآثار الأدبية والفلسفية والفنية ، التى مهما تكن مشخصاتها فهى متصلة بحضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن ، وإلى هذه السياسة والفقه اللذين مهما يكن أمرهما فهما متصلان أشد الاتصال بما كان للرومان من سياسة وفقه ، وإلى هذا الدين الإسلامى الكريم وما يدعو إليه من خير وما يحث عليه من إحسان ، ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن ينكروا أن الإسلام قد جاء متممًا ومصدقًا للتوراة والإنجيل !

وإذًا فمهما نبحث ومهما نستقص فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل الأوربى والعقل المصرى فرقًا جوهريًا .

# مَذَاهِبُنَا القَدِيمَة فى التعْلِيمِ وَأَخْذُ الأورُبيينَ عَنْهَا

## ٧

وقد جاء هذا العصر الحديث ، وكان الاتصال بين مصر وأوربا ، أو قل كان الاتصال بين أجزاء الأرض جميعًا . وقد قوى هذا الاتصال ، حتى أصبح المقوم الأول ، والأساس لحياة الأفراد والجماعات . فقد ألغيت مسافات الزمان والمكان بين الأمم والشعوب ، وأصبح المصريون يعرفون فى اليوم نفسه ، بل فى اللحظة نفسها ، أحداث العالمين ، كما يعرف العالمان فى اليوم نفسه ، بل فى اللحظة نفسها ، أحداث مصر . ونهضت مصر منذ أول القرن الماضى نهضتها صريحة قوية ، بينة الأعلام واضحة الاتجاه . وهى نهضة مهما يختلف فيها الناس فلن يستطيعوا أن يختلفوا فى أنها تأخذ بأسباب الحياة الحديثة على نحو ما يأخذ بها الأوربيون فى غير تردد ولا اضطراب .

حياتنا المادية أوربية خالصة فى الطبقات الراقية . وهى فى الطبقات الأخرى تختلف قربًا وبعدًا من الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات ، وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد . ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربى فى حياته المادية . نتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون ، ونتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون . نفعل ذلك عن علم به وتعمد له ، أو نفعل ذلك عن علم وعلى غير عمد ، ولكننا ماضون فيه على كل حال . وليس فى الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذى يستمتع بها عليه الأوربيون .

مدت أوربا الطرق الحديدية ، وأسلاك التلغراف والتليفون ، فمددناها ، جلست أوربا إلى الموائد ، واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام وأدواته وألوانه ، فصنعنا صنيعها . ثم تجاوزنا ذلك إلى ما اصطنع الأوربيون لأنفسهم من لباس ، ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الأنحاء التى يحيا عليها الأوربيون فاصطنعناها لأنفسنا ، غير متخيرين ولا محتاطين ، ولا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن ، وما يلائم منها وما لا يلائم .

ونستطيع أن نقول : إن مقياس رقى الأفراد والجماعات فى الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا إنما هو حظنا من الأخذ بأسباب الحياة الأوربية .

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة . نظام الحكم عندنا أوربى خالص ، نقلناه عن الأوربيين نقلاً فى غير تحرج ولا تردد . وإذا عبنا أنفسنا بشىء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية . وقد اضطربت حياتنا السياسية فى هذا العصر الحديث ، ولاسيما فى هذا القرن بين الحكم المطلق والحكم المقيد . فلم يكن اضطرابها بين هذين النوعين كما ألفهما الشرق فى القرون الوسطى بمعنى : أن نظام الحكم المطلق عندنا فى العصر الحديث كان متأثرًا بنظام الحكم المطلق فى أوربا قبل انتشار النظام الديمقراطى ، وأن نظام الحكم المقيد عندنا كان متأثرًا بنظم الحكم المقيد فى أوربا أيضًا .

فالذين أرادوا أن يستبدوا بأمور مصر فى العصر الحديث كانوا يذهبون مذهب لويس الرابع عشر وأشباهه أكثر مما كانوا يذهبون مذهب عبد الحميد وأمثاله .

والذين أرادوا أن يحكموا مصر حكمًا مقيدًا بالعدل دون أن يشركوا الشعب معهم فى الحكم كانوا يتخذون لحكمهم قيودًا أوربية لا شرقية . فهم قد أنشأوا المحاكم الأهلية ، وشرعوا القوانين المدنية ، واستقوا ذلك من النظم الأوربية لا من النظم الإسلامية : وهم قد وضعوا النظم الإدارية والمالية والاقتصادية ، وذهبوا فى ذلك مذهب الأوربيين ، بل نقلوا ذلك نقلا عن الأوربيين ، ولم يستمدوه مما كان مألوفًا عند ملوك المسلمين وخلفائهم فى القرون الوسطى .

فمجلس النظار أو مجلس الوزراء ، ونظارات الحكومة أو وزاراتها والمصالح المتصلة بهذه النظارات والوزارات ، كل ذلك أوربى المصدر ، أوربى الجوهر ، أوربى الشكل لم يعرف منه المسلمون شيئًا ، فى القرون الوسطى وقبل هذا العصر الحديث . وقد استبقيت أشياء من النظم الإسلامية القديمة لم يكن بد من استبقائها لأنها تتصل بالدين من قريب أو بعيد . ولكن كثيرًا من التغيير والتبديل قد مسها حتى أصبحت شديدة التأثر بالنظم الأوربية فى شكلها على أقل تقدير . وقد يكون من النافع ، ومن الظريف أيضًا ، أن يقارن بين محاكمنا الشرعية الآن بعد أن تأثرت بالاصلاح الحديث وبين محاكمنا قبل ذلك ، حين لم تكن إلا استمرارًا للنظام الإسلامى القضائى القديم .

وأكبر الظن أن قضاة المسلمين القدماء لو أنشروا فى هذه الأيام لأنكروا من نظام المحاكم الشرعية شيئًا كثيرًا ، ولعلهم أن ينكروا أكثر مما يعرفون ! وقد استبقينا نظام الوقف ولكننا لم نلبث أن أنشأنا له وزارة وإن أدرناه على نحو ما أظن أن القدماء يعرفونه أو يرضون

عنه لو ردوا إلى الحياة . ونحن مع ذلك ننكر وزارة الأوقاف ونراها مسرفة فى التأخر مبطئة فى التطور . بل منا من ينكر شيئًا غير قليل من نظام الوقف نفسه فيريد إلغاؤه أو تغييره ليلائم بين حياة الأسر وحاجات الاقتصاد الحديث .

وقد استبقينا الأزهر الشريف نفسه . ولكن أزمة الأزهر الشريف متصلة منذ عهد إسماعيل أو قبله ولم تنته بعد . وما أظنها ستنتهى اليوم أو غدًا ، ولكنها ستستمر صراعًا بين القديم والحديث حتى تنتهى إلى مستقر لها فى يوم من الأيام .

وكل شىء يدل بل كل شىء يصيح بأن الأزهر مسرف فى الإسراع نحو الحديث ، يريد أن يتخفف من القديم ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولو أن الله أنشر علماء الأزهر الشريف الذين كانوا يعيشون فى أول هذا العصر الحديث ، وأراهم ما انتهى إليه الأزهر من التطور لرغبوا إلى الله مخلصين فى أن يردهم إلى أجداثهم حتى لا يروا هذه الأحداث العظام !

كل هذا يدل على أننا فى هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوربا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءا منها لفظًا ومعنى وحقيقة وشكلا . وعلى أننا لا نجد فى ذلك من المشقة والجهد ما كنا نجده لو أن العقل المصرى مخالف فى جوهره وطبيعته للعقل الأوربى .

ثم لم يقف أمرنا عند هذا الحد . فقد خطونا بعد الحرب الكبرى خطوات حاسمة ليس لنا من أمل فى أن نرجع عنها ، ولا من سبيل إلى هذا الرجوع . وما أشك فى أن كثرة المصريين مستعدة لأن تبذل المهج والنفوس وتضحى بالحياة والأموال فى سبيل المحافظة على هذه الخطوات التى خطوناها وعلى هذه الحقوق التى كسبناها .

وأين المصرى الذى يرضى بأن ترجع مصر عن هذه الخطوات التى خطتها فى سبيل النظام الديمقراطى ؟ وأين المصرى الذى يطمئن إلى أن تعود مصر إلى نظام للحكم يقوم على غير الحياة الدستورية النيابية .

وهل الحياة الدستورية النيابية إلا شىء أخذناه من أوربا أخذًا ونقلناه عنها نقلا ؟ فلم نكد نستمتع به حتى اتصل بحياتنا وامتزج بدمائنا ، وأصبح حبه غذاء لنفوسنا ، وقوامًا لعقولنا ، وعنصرًا من عناصر ضمائرنا . وإنى لأتخيل داعيًا يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التى ورثوها عن آبائهم فى عصر الفراعنة أو فى عصر اليونان والرومان

أو فى عصرها الإسلامى ، أتخيل هذا الداعى وأسأل نفسى : أتراه يجد من يسمع له ويسرع إلى إجابته أو يبطىء فى هذه الإجابة ، ولكنه يجيب على كل حال ؟ فلا أرى إلا جوابًا واحدًا يتمثل أمامى بل يصدر من أعماق نفسى : وهو أن هذا الداعى إن وجد لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به .

والذين نراهم فى مصر محافظين ومسرفين فى المحافظة ، ومبغضين أشد البغض للتفريط فى التراث القديم ، هؤلاء أنفسهم لن يرضوا بالرجوع إلى العصور الأولى ، ولن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى النظم العتيقة إن دعاهم إليها .

ولم يقف أمرنا عند هذا الحد . بل نحن قد خطونا خطوات أبعد جدا مما ذكرت . فالتزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم ، ونسير سيرتها فى الإدارة ، ونسلك طريقها فى التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوربا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع ؟

فلو أننا هممنا الآن أن نعود ادراجنا وأن نحيى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تجتاز ولا تذلل ، عقابا نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقى ، وعقابا تقيمها أوربا لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة .

نحن إذا مدفوعون إلى الحياة الحديثة دفعا عنيفا . تدفعنا إليها عقولنا وطبائعنا وأمزجتنا التى لا تختلف فى جوهرها قليلا ولا كثيرا منذ العهود القديمة جدا عن عقول الأوربيين وطبائعهم وأمزجتهم . وتدفعنا إليها المعاهدات التى أمضيناها وأبرمناها ، والالتزامات التى قبلناها راضين ، بل بذلنا فى سبيلها جهودًا لا تحصى ، وضحينا فى سبيلها بالأنفس الذاكية والدماء الطاهرة ، وأنفقنا فى سبيلها كرائم الأموال ، واحتملنا فى سبيلها ضروب المحن والآلام .

والتعليم عندنا ، على أى نحو قد أقمنا صروحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى ؟ على النحو الأوربى الخالص ما فى ذلك شك ولا نزاع نحن نكون أبناءنا فى مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكوينًا أوربيا لا تشوبه شائبة . فلو أن عقول آبائنا وأجدادنا كانت شرقية مخالفة فى جوهرها وطبيعتها للعقل الأوربى فقد وضعنا فى رؤوس أبنائنا عقولا أوربية فى جوهرها وطبيعتها وفى مذاهب تفكيرها وأنحاء حكمها على

الأشياء . ولعمرى إنى لأتخيل داعيا يدعونا إلى أن نعدل بمدارسنا ومعاهدنا عن الطريق الأوربية التى سلكناها إلى الطريق القديمة التى كان يسلكها آباؤنا وأجدادنا .

إنى أتخيل داعيا يدعونا إلى هذا ، فما أرى إلا أنا سنلقاه ضاحكين منه مستهزئين به ! وما أرى إلا أن الأزهريين وهم مستقر المحافظة سيكونون أكثرنا منه ضحكا وأعظمنا به استهزاء ! على أن مذاهبنا القديمة فى التعليم قد كانت هى المذاهب التى كان يذهبها الأوربيون ويتخذونها أصولا لحياتهم العقلية فى القرون الوسطى . وأكبر الظن ، بل الحق الذى لاشك فيه ، أنهم قد أخذوا عنا هذه المذاهب كما نأخذ نحن عنهم اليوم ، وساروا سيرتنا كما نسير نحن سيرتهم اليوم . فالفرق بيننا وبينهم فى حقيقة الأمر لا يتصل بطبائع الأشياء وجواهرها ، وإنما يتصل بالزمان ليس غير . بدأوا حياتهم الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وأخرنا الترك العثمانيون فبدأنا حياتنا فى القرن التاسع عشر . ولو أن الله عصمنا من الفتح العثمانى لاستمر اتصالنا بأوربا ، ولشاركناها فى نهضتها ، ولسلكنا معها إلى الحياة الحديثة نفس الطريق التى سلكتها ن ولتغير وجه العالم ، ولكان للحضارة الحديثة شأن غير شأنها الآن .

على أن الله أراد بنا خيرا برغم الأحداث والخطوب فقد بلغ العالم من الرقى طورا يمكننا من أن نبلغ فى عصر قصير ما أنفق الأوربيون فى سبيله عشرات السنين بل مئاتها . فويل لنا إذا لم ننتهز هذه الفرصة ولم ننتفع بهذا التوفيق .

# تَقْصِيرُ مِصْرَ فى الأَخْذِ بأَسْبَابِ الحَضَارَةِ الحَدِيثة

## ٨

ولست أدرى كيف نصور ما نستحقه من اللوم وما نستأهله من المذمة والعيب حين أقارن بين شعبنا المصرى وبين شعوب شرقية أخرى كانت لها حياة تخالف الحياة الأوربية من جميع الوجوه ، وعقليات تباين العقلية الأوربية من جميع الأنحاء ، كيف نصور ما نستحقه من اللوم حين نذكر أن الشعب اليابانى من شعوب الشرق الأقصى قد كان يخالف فى حياته المادية والعقلية أشد المخالفة وأقواها شعوب أوربا . فما هى إلا أن أحس ألا سبيل له إلى أن يعيش كريمًا حتى يشبه الأوربيين فى كل شىء ، ويزاحمهم فى ميادينهم ، ويجاريهم فى سيرتهم ، فما هى إلا أن هم حتى فعل ، وما هى إلا أن أراد حتى وفق إلى ما أراد . وإذا هو شعب مهيب تشفق منه أوربا أشد الإشفاق ، وتصانعه أشد المصانعة ، وتمنحه ما هو أهل له من الإكبار والإجلال والإحترام .

فكيف بنا ولم يكن بيننا وبين الأوربيين من الفروق ما كان بين اليابانيين والأوربيين ! وكيف بنا ونحن شركاء الأوربيين ! فى تراثهم العقلى على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وفى تراثهم الدينى على اختلاف مذاهبه ونحله ، وفى تراثهم المادى على اختلاف ضروبه وأنحائه !

كيف بنا ونحن نشارك الأوربيين فى هذا كله ، ولم يكن بين اليابانيين وبينهم شركة فى شىء منه قليل أو كثير .فإذا اليابانيون قد زاحموا الأوربيين حتى زحموهم ، وإذا نحن مانزال متخلفين . ومنا من يجادل فى أن من الحق أو من الباطل ، وفى أن من الخير أو من الشر ، وفى أن من النفع أو من الضر أن نأخذ بحظنا من تراثنا القديم ! أستغفر الله ،بل كنا لهم أساتذة فى القرون الوسطى وفى العصر القديم .

هم يعرفون ذلك ولا ينكرونه ، وهم يعلنون ذلك ولا يسرونه ونحن نجادل فى ذلك بغير حق ، ونمارى فى ذلك ، لا يدفعنا إلى المراء فيه إلا الكسل وفتور العزيمة وحب الراحة وإيثار العافية وخمود جذوة العقل .

صدقنى ياسيدى القارئ أن الواجب الوطنى الصحيح بعد أن حققنا الاستقلال وأقررنا الديمقراطية فى مصر ، إنما هو من أن نبذل ما نملك وما لا نملك من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين أفرادا وجماعات أن الله قد خلقهم للعزة لا للذلة ، وللقوة لا للضعف ، وللسيادة لا للاستكانة ، وللنباهة لا للخمول ، وأن نمحو من قلوب المصريين أفرادًا وجماعات هذا الوهم الآثم الشنيع الذى يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوربى ، وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوربية ، ومنحوا عقولا غير العقول الأوربية .

فهذا كله باطل سخيف لا يثبت أمام أيسر التفكير ، ولا يستقيم لأهون نظرة فى التاريخ من جهة ، وفى طبائع الأشياء من جهة أخرى .

ولنفرض هذا المحال ، ولنقرر أن بيننا وبين الأوربين هذه الفروق الخطيرة التى تمتلئ بها وتضطرب لها قلوب العاجزين منا ، والتى تنتفخ لها أوداج الطامعين والمستعمرين من الأوربين .

لنفرض هذا المحال ولنقرر أنه صحيح واقع ، فإن نظرة يسيرة إلى حياة الشعب اليابانى فى القرن الماضى خليقة أن تقنعنا بأن الله قد خلق النوع الإنسانى كله مستعدا للرقى ، قادرًا على التقدم ، خليقًا أن يبلغ من الكمال ما يتاح للناس أن يبلغوه ، وأن أرسطاطاليس قد أخطأ خطأ شنيعا حين زعم أن من الناس من يخلق ليأمر ، وأن منهم من يخلق ليطيع .

كلا ! إنما خلق الناس جميعًا ليكونوا سواء فى الحقوق والواجبات واستقبال هذه الحياة ، وما أتيح لنا فيها من خير وما كتب علينا من مكروه . ولكن الناس يطغى بعضهم على بعض ، ويجب أن يهدم هذا الطغيان وأن نكون نحن هادميه ، ولكن الناس يبغى بعضهم على بعض ويجب أن يزول هذا البغى وأن نكون نحن من مزيله .

وأى شىء أيسر من الاقتناع بهذه الفكرة الهينة السهلة ؟ يكفى أن ننظر إلى حياتنا الخاصة ، فسنرى بيننا العالم والجاهل ؟ والمثقف والذى لاحظ له من ثقافة ، والغنى والفقير ، والسعيد والشقى . أفتظن أن الله قد خلق فريقا منا نحن المصريين، ليكون عالما فطنا وموفورا سعيدا، وقضى على فريق آخر منا أن يكون جاهلاً غافلاً ومحروما شقيا ؟

كلا ! ان الله قد خلقنا جميعًا لنستوفى حظنا من هذه الحياة سعداء بها ما وجدنا إلى السعادة سبيلا ، أشقياء بأثقالها ما عجزنا عن دفع هذا الشقاء .

ولكن بعضنا يبغى على بعض ، ولكن النظم التى تدبر أمورنا فى حاجة إلى كثير من الاصلاح . ونحن حين نشرع القوانين وننشئ المدارس وننشر العلم وننظم الاقتصاد ونستعير النظم الديمقراطية من أوربا إنما نسعى إلى شىء واحد هو تحقيق المساواة التى هى حق طبيعى لأبناء الوطن الواحد جميعا .

فهذه الفكرة التى لا ننكرها ولا نجادل فيها ، حين ينظر بعضنا إلى بعض وحين يفكر بعضنا فى بعض ، هى بعينها الفكرة التى يجب أن نؤمن بها ، وألا نجعلها موضوعا للجدال والنزاع حين نفكر فى غيرنا من الشعوب . يجب أن نمحو من أنفسنا أن فى الأرض شعوبا قد خلقت لتسودنا . ويجب أن نمحو من أنفسنا أن فى الأرض شعوبا قد خلقت لنسودها .

ويجب أن نقر فى أنفسنا أن نظام المساواة فى الحقوق والواجبات ، هذا الذى نريد أن نقره فى حياتنا الداخلية ، هو بعينه النظام الذى يجب أن نقره فى حياتنا الخارجية وفيما بيننا وبين أوربا من الصلات .

# وُجُوبُ الصَّرَاحَةِ فى الأخذِ بِأسْبَابِ الحَضَارَةِ الأوربيّة

## ٩

لكن السبيل إلى ذلك ليست فى الكلام يرسل إرسالا ، ولا فى المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة ، وإنما هى واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى واحدة فذة ليس لها تعدد وهى : أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب .

ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع . والغريب أنا نسير هذه السيرة ونذهب هذا المذهب فى حياتنا العملية اليومية ، ولكننا ننكر ذلك فى ألفاظنا وعقائدنا ودخائل نفوسنا ، فنتورط فى نفاق بغيض لا أستطيع أن أسيغه ولا أن أسكن إليه . إن كنا صادقين فيما نعلن ونسر من بغض الحياة الأوربية فما يمنعنا أن نعدل عنها عدولا ونصد عنها صدودا ونطرحها اطراحا ؟ وإن كنا صادقين فيما نقدم عليه كل يوم وفى كل ثنى من أثناء حياتنا العملية من تقليد الأوربيين ومجاراتهم فما يمنعنا أن نلائم بين أقوالنا وأعمالنا وبين آرائنا وسيرتنا ، فإن هذا النفاق لا يليق بالذين يكبرون أنفسهم ويريدون أن يرتفعوا بها عن النقائص والدنيات ؟

نحن فى حاجة إلى قوة الدفاع الوطنى فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بحاجتنا هذه إيمان الذين يجدون ولا يهزلون ، وإذا فقوة الدفاع الوطنى عندنا يجب أن تكافئ قوة ما نتعرض له من الهجوم . ومعنى ذلك أن جيشنا يجب أن ينظم تنظيما أوربيا وأن شبابنا يجب أن يعدوا لهذا الجيش كما يعد الشباب الأوربيون لجيوش أوربا ، وأن ضباط هذا الجيش يجب أن يأخذوا من الثقافة بنفس الحظوظ التى يأخذ بها ضباط الجيوش الأوربية ، وأن عدة هذا الجيش يجب أن تكافئ عدة الجيوش التى يمكن أن تغير علينا . ومعنى ذلك أننا مضطرون إلى أن نهيئ فريقا من أبنائنا لصنع ما يمكن صنعه من هذه العدة عندنا ، واستعمال ما لا نصنعه منها ، وأن يكون الفنيون من أبنائنا فى شئون الحرب على اختلافها كالفنيين من أبناء الأمم التى يمكن أن تغير علينا فى يوم من الأيام .

ومعنى ذلك أن الدفاع عن حوزتنا والذياد عن حرمنا ، والصيانة لاستقلالنا ، كل ذلك يكلفنا ويفرض علينا أن نتهيأ لأمور الحرب كما يتهيأ لها الأوربيون ، وأن نوجه لونا من ألوان التربية والتعليم عندنا نفس الوجه الذى يتجه إليه الأوربيون عندما يهيئون أبناءهم للدفاع عن أرض الوطن .

هذه أشياء لا يجادل فيها مصرى . ولعل حكومتنا تجد شيئًا غير قليل من الألم لأن ظروف الحياة المادية لا تمكنها من أن تحقق آمال المصريين من هذه الناحية على النحو السريع الذى نريده .

فلو قال قائل : إنا قد ورثنا عن آبائنا وأجدادنا حرب الكر والفر ، وهذه العدة التى تنحصر فى السيف والرمح والقوس والسهم والدرقة والدرع ، فلندع للأوربيين نظامهم الحربى وما استحدثوا من ألوان السلاح وأدوات التدمير ، ولنكتف بجيوش تشبه فى عددها وعددها جيش خالد بن الوليد أو جيش بيبرس .

لو قال قائل هذا الكلام للقيه المصريون جميعا بالضحك والسخرية والاستهزاء ، ولكان المحافظون وأنصار القديم أشد الناس التواء عليه وازورارًا عنه .

نحن إذًا نريد أن نضارع الأمم الأوربية فى قوتها الحربية لنرد عن أنفسنا غارة المغير ولنقول لأصدقائنا الإنجليز بعد أعوام : انصرفوا مشكورين فقد أصبحنا قادرين على حماية القناة . ومن أراد الغاية فقد أراد الوسيلة ، ومن أراد القوة فقد أراد أسباب القوة ، ومن أراد جيشا أوربيا قويا فقد أراد تربية أوربية وتعليما أوربيا يهيئان الشباب لتكوين الجيش القوى العزيز .

ونحن فى حاجة إلى استقلال اقتصادى ما يشك فى ذلك شاك ولا يجادل فى ذلك مجادل . بل نحن ندعو إليه ، ونلح فيه ، ونثقل على الحكومة بالدعاء والالحاح ، نطالبها بما تستطيع وما لا تستطيع ، ونتعجلها إلى ما تملك وما لا تملك .

ونحن لا نريد الاستقلال الاقتصادى لنتمتع بمشاهدته والنظر إليه . وإنما نريده لنحمى به ثروتنا وأقواتنا كما نريد الجيش لنحمى به أرض الوطن . فهذا الاستقلال الاقتصادى يجب أن يكون استقلالا اقتصاديا من الطراز الأوروبى ، لأننا لا نريد أن نستقل فى الاقتصاد بالقياس إلى الحجاز واليمن والشام والعراق ، وإنما نريد أن نستقل فى الاقتصاد بالقياس إلى أوربا وأمريكا .

فكما أن وسائلنا إلى حماية أرض الوطن هى نفس الوسائل التى يصطنعها الأوربيون لحماية أوطانهم ، فوسائلنا إلى حماية الاقتصاد القومى هى نفس الوسائل التى يصطنعها الأوربيون والأمريكيون لحماية ثروتهم . وإذًا فلابد من أن نهيىء شبابنا للجهاد الاقتصادى على نفس النحو الذى يهيىء الأوربيون والأمريكيون عليه شبابهم لهذا الجهاد . ولابد من أن ننشئ المدارس والمعاهد التى تهيئ لهذا الجهاد على النحو الذى أنشأ الأوربيون والأمريكيون عليه مدارسهم ومعاهدهم ، لأن من أراد الغاية فقد أراد الوسيلة . وليس يكفى ولا يستقيم فى العقل أن نريد الاستقلال ونسير سيرة العبيد .

ونحن نريد الاستقلال العلمى والفنى والأدبى ، هذا الذى يمكننا من أن نهيئ شبابا قادرين على حماية الوطن ، أرضه وثروته من جهة ، وعلى إشعار الأجنبى بأننا مثله وأنداده من جهة أخرى . هذا الذى يمكننا من أن نتحدث إلى الأوربى فيفهم عنا ، ومن أن نسمع للأوربى فنفهم عنه ، ومن أن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها . ونقوم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها . وإذا فنحن نطلب منها مثل ما يطلب ، ونرفض منها مثل ما يرفض ، ونريد أن نكون شركاءه فى الحياة وأعوانه عليها ، لا خدمه ووسائله إلى هذه الحياة .

فإذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلى والنفسى الذى لا يكون إلا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى فنحن نريد وسائله بالطبع . ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوربى ، لنشعر كما يشعر الأوربى ، ولنحكم كما يحكم الأوربى ثم لنعمل كما يعمل الأوربى ونصرف الحياة كما يصرفها .

ونحن نريد آخر الأمر أن نكون أحرارا فى بلادنا ، أحرارا بالقياس إلى الأجنبى بحيث لا يستطيع أن يظلمنا أو يبغى علينا ، وأحرارا بالقياس إلى أنفسنا بحيث لا يستطيع بعضنا أن يظلم بعضا أو يبغى على بعض .

نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديمقراطى . ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التى تحوط هذا الاستقلال .

فإذا كنا نريد هذا صادقين فنحن نريد وسائله من غير شك . ووسائله هى هذه التى مكنت للأوطان الأوربية والأمريكية من أن تكون حرة فى داخلها ، مستقلة فى خارجها ، كريمة فى نفوسها وفى نفوس الناس .

ومعنى ذلك أننا بين اثنتين :فإما أن نريد حياة الحرية والعزة وإذًا فلنسلك إليها السبل التى سلكتها الأمم الحرة العزيزة . وإما أن نريد حياة الذلة والاستعباد وإذًا فالأمر يسير وهو أن نترك أمورنا فوضى تمضى كما تستطيع على غير نظام وفى غير طريق .

ولكننا لا نريد هذه الثانية ، وإنما نريد الأولى من غير شك . نريدها منذ أقدم العصور ، وآية ذلك أننا لم ننس استقلالنا يوما ما ، ولم نفن شخصيتنا الوطنية فى جيل من هذه الأجيال الكثيرة التى أغارت علينا ، وإنما احتفظنا بهذه الشخصية دائما وطالبنا بهذا الاستقلال دائما . وقد أتيح لنا بفضل جهادنا فى هذا العصر الحديث أن نرد لهذه الشخصية المصرية الخالدة حقها من العزة والكرامة والاستقلال .

فالحق علينا أن نحتفظ بما كسبنا ، وألا نضيع ما فزنا به ، وأن نحوط الاستقلال الذى استرجعناه ، وننمى العزة التى كسبناها ، وننشئ لمصر الحديثة أجيالا من الشباب كراما أعزاء أباة للضيم حماة للحرم ، لا يتعرضون لمثل ما تعرض له بعض أجيالنا السابقة من الذلة والهوان .

وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها وهى : بناء التعليم على أساس متين .

# مُسَايَرَةُ الإسْلامِ لِلحَضَارَة فى العُصُورِ المخْتلِفَة

## ١٠

وأنا أعلم أن كثيرًا من الناس سيلقون هذا النحو من التفكير بشىء غير قليل من الانكار له والازورار عنه . منهم من ينكر مشفقًا ويزور خائفًا، لا يدفعه إلى الانكار والازورار إلا الإخلاص وحسن القصد وسلامة الضمير . ومنهم من يتكلف الإشفاق والخوف ، ويعلن الانكار والازورار داعيا بالويل والثبور وعظائم الأمور كما يقال ليوقظ فتنة نائمة قد طال عليه نومها ، وهو لا يرضى ولا يطمئن إلا إذا أوضع فى الفتنة وعاش مستضيئًا بما تثير من اللظى واللهيب .

فأما هؤلاء المتكلفون المتصنعون الذين يكذبون على أنفسهم قبل أن يكذبوا على الناس ، والذين يوقظون الفتنة لأنهم لا ينعمون إلا بها ولا يسعدون إلا فى ظلها ، فما ينبغى أن نحفل بهم ولا أن نفكر فيهم ، ولا أن نوجه إليهم قولا ولا أن نسوق إليهم حديثًا لأن السبيل إلى إقناعهم منقطعة ، وأبواب الأمل فى إصلاح ذات نفوسهم مغلقة . فالخير أن يتركوا لهذه النار التى تضطرم فى قلوبهم حتى تأتى على هذه القلوب . وأما الذين يشفقون ويخافون عن إخلاص وصدق وعن حسن قصد وسلامة ضمير فأنا حريص على أن أزيل ما يثور فى نفوسهم من شك ، وأرد إلى قلوبهم الكريمة الطيبة مَا هى فى حاجة إليه من الأمن والإطمئنان . من هؤلاء الصادقين المخلصين قوم يشفقون على حياتنا الدينية من الاتصال بأوربا على هذا النحو القوى الصريح الذى أدعو إليه . هم يرون ويسمعون أن فى الحياة الأوربية كثيرًا من الآثام وفنونًا من الموبقات واستباحة لأشياء لا يبيحها ديننا الحنيف . فيقولون فى أنفسهم إن الدعوة إلى الاتصال بالحياة الأوربية على هذا النحو خليقة أن تغرى بما فى الحياة الأوربية من إثم ، وتورط فيما فيها من موبقة ، وتحرض على ما فيها من مخالفة للدين .

وقد يحسن أن نلفت هؤلاء الصادقين الأخيار إلى أن الحياة الأوربية ليست إثمًا كلها ، وإلى أن فيها خيرًا كثيرًا ، وإلى أن الإثم الخالص لا يمكن من الرقى . وقد ارتقى

الأوربيون ما فى ذلك شك . وإلى أن حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيرًا كلها بل فيها شر كثير . والخير الخالص لا يدفع إلى الانحطاط وقد انحطت حياتنا ما فى ذلك شك . فحياة الأفراد والجماعات فى كل مكان وفى كل زمان مزاج بين الخير والشر مهما تختلف أجيال الناس ومهما يتباين ما يحيط بهم من الظروف .

والرجل الفطن الذى يؤثر نفسه بالخير خليق بأن ينصح لنفسه فى أمر دينه وفى أمر دنياه ، فيقبل على المعروف والإحسان ، وينصرف عن المنكر والسوء ما وسعه ذلك . فإذا دعونا إلى الاتصال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين فى سيرتهم التى انتهت بهم إلى الرقى والتفوق ، فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم ، إنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما فى سيرتهم . كما أن هؤلاء الصادقين الأخيار إذا دعوا إلى الاستمساك بحياتنا الموروثة والاحتفاظ بتقاليدنا المستقرة فهم من غير شك لا يدعون إلى أن نستمسك بما فى حياتنا الموروثة من آثام ، ولا إلى أن نحتفظ بما فى تقاليدنا من سيئات ، وإنما هم يدعون إلى أن نستمسك بما فى حياتنا وتقاليدنا من الخير والمعروف . ونحن حين ندعو إلى الاتصال بأوروبا والأخذ بأسباب الرقى التى أخذوا بها ، لا ندعو إلى أن نكون صورًا طبق الأصل للأوربيين كما يقال ، فذلك شىء لا سبيل إليه ولايدعو إليه عاقل . والأوربيون يتخذون المسيحية لهم دينًا فنحن لا ندعو إلى أن تصبح المسيحية لنا دينًا ، وإنما ندعو إلى أن تكون أسباب الحضارة الأوربية هى أسباب الحضارة المصرية لأننا لا نستطيع أن نعيش بغير ذلك فضلا عن أن نرقى ونسود .

والأوربيون يختلفون فى أشياء كثيرة . فهم مسيحيون فى ظاهر أمرهم ولكن مسيحيتهم أشكال وألوان ولم يمنعهم اختلافهم فى المذهب الدينى من أن يتفقوا فى أسباب الحضارة وفى نتائجها .

ومن الأوربيين قوم يتخذون المسيحية دينًا ، ومنهم من لا دين لهم ، ولكن هذا كله لم يمنعهم كما قلنا من أن يتفقوا فى أسباب الحضارة ويتفقوا فى الاستمتاع بنتائجها والفوز بثمارها .

وليس من شك فى أن الحضارة الأوربية الحديثة قد وقفت من المسيحية الأوربية موقف خصومة عنيفة متصلة . وليس من شك فى أن أوربا قد ضحت فى سبيل هذه الخصومة الشىء الكثير من الأنفس والأموال .

ولكن الأمر قد انتهى فيها إلى شيء من التوازن بين الدين والحضارة ، ولكن العقل الأوربى المستقيم قد انتهى إلى أن الخصومة العنيفة الآثمة لم تكن بين الدين والحضارة فى حقيقة الأمر وإنما كانت بين الذين يمثلون الدين والحضارة . كانت بين الأهواء والشهوات لا بين الدين الذى يغذو القلوب والشعور والحضارة التى تنتجها العقول .

ولعل مصدر هذه الخصومة العنيفة بين الدين والعقل فى أوربا أو بين رجال الدين ورجال العقل ، أن رجال الدين المسيحى لهم نظمهم وقوانينهم وسلطانهم القوى الذى كونته لهم العصور المتصلة والظروف المختلفة ، فلم يكن لهم بد من أن يذودوا عن هذا السلطان ويحافظوا على ما كان لهم من قوة وبأس .

فأما نحن فقد عصمنا الله من هذا المحظور ووقانا شروره التى شقيت بها أوربا . فالإسلام لا يعرف الأكليروس ولا يميز طبقة رجال الدين من سائر الطبقات . والإسلام قد ارتفع عن أن يجعل واسطة بين العبد وربه . فهذه السيئات التى جنتها أوربا من دفاع رجال الدين عن سلطانهم لم نجنيها نحن إلا إذا أدخلنا على الإسلام ما ليس فيه وحملناه ما لا يحتمل .

وبعد ، فإنى أحب أن يلتفت هؤلاء الصادقون الأخيار إلى أن الإسلام لم يكد يتجاوز بلاد العرب حتى اتصل بحضارات أجنبية كان مركزها فى ذلك الوقت من العرب والمسلمين كمركز أوربا منا الآن .

فلم يتحرج العرب المسلمون من أن يأخذوا بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية كما أخذ بها الفرس والروم الذين لم يكونوا مسلمين فى ذلك الوقت . لم يتحرجوا من ذلك ولم يرفضوه . وليس من شك فى أنهم جنوا من ذلك بعض الشر فساءت الأخلاق والسير فى بعض البيئات وفسدت العقائد ودخائل النفوس فى بعضها الآخر . ولكن شيئًا من ذلك لم يرد المسلمين عن الأخذ بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية لأنهم جنوا من ذلك ثمرات حلوة لا تزال الإنسانية تستمتع بها إلى الآن . فهم قد صاغوا من هاتين الحضارتين ومن تراثهم القديم هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التى أزهرت أيام بنى أمية وبنى العباس والتى يحرص المحافظون منا عليها أشد الحرص . وهذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد ، وببعضها الآخر من مجوس الفرس ، وببعضها الآخر من نصارى الروم . والذين يظنون أن الحياة

يمكن أن تكون كلها خيرًا وبرا وصلاحًا يخطئون خطأً عظيمًا . فالخير المطلق فى هذه الأرض مستحيل ، وقد أراد الله للناس أن تكون حياتهم مزاجًا من الخيروالشر ، وأودع الإنسان عقله وإرادته وأنزل إليه دينه ليميز بين الخير والشر ولينصح لنفسه ويختار لها .

وقد احتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزنادقة ومجون الماجنين . قاوموا ذلك فى الحدود المعقولة ولكنهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبية التى أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون .

وقد شهد المسلمون زندقة الزنادقة وفسوق الفساق ومجون الماجنين ولكنهم شهدوا مع هذا كله نسك النساك وزهد الزهاد وورع أصحاب الورع والصلاح .

وقد ورثنا آثار أولئك وهؤلاء مكتوبة . ورثنا شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما كما ورثنا فقه الأئمة وكلام المتكلمين وزهد الزهاد . والغريب أننا ننتفع بكل ما ورثنا من أسلافنا ولا يخطر لأحد من أشد الناس محافظة أن يحظر درس بشار وأبى نواس ، ولا أن يطلب إلى السلطان تحريق ما ورثنا من آثار الفلاسفة والزنادقة والمجان الذين لا يرضى عنهم الدين ولا تقر الفضيلة سيرهم وآراءهم . ولو قد دعا داع إلى استصدار قانون بتحريق شعر أبى نواس وبشار وحماد وأضرابهم لكان رجال الدين أنفسهم أسرع الناس إلى إنكار هذه الدعوة البشعة وأشد الناس سخطًا على من يدعو بها أو يجيب إليها .

والأمر فى حياة الأوربيين كالأمر فى حياة المسلمين أيام بنى أمية وبنى العباس . لهم حضارة خصبة مزدهرة تنتج ما تنتجه الحضارة الإنسانية دائمًا من الخير والشر . ففيهم أصحاب الجد وفيهم أصحاب الهزل وفيهم أصحاب التقوى وفيهم أصحاب الفجور . ولن توجد فى الأرض حضارة إلا وهى تنبت الخير والشر وتثمر التقى والإثم .

فليس على حياتنا الدينية بأس من الأخذ القوى بأسباب الحضارة الأوربية ، لأن أكثر مما كان عليها من بأس حين أخذ المسلمون فى قوة بأسباب حضارة الفرس والروم .

فنحن بين اثنتين : إما أن ننكر ماضينا كله ونجحد أسلافنا جميعًا ونرفض مجد المسلمين الذين أسسوا الحضارة الإسلامية وما أظننا مستعدين لشىء من هذا ، وإما أن ننهج نهجهم ونذهب مذهبهم ونأخـذ بأسباب الحضارة الأوربية فى قوة ، كما أخذوا

هم فى قوة بأسباب حضارة الفرس والروم . وليلاحظ أنى فى حقيقة الأمر لا أدعو إلى شيء . فنحن آخذون بأسباب هذه الحضارة الحديثة بالفعل منذ اتصلنا بأوربا فى أوائل القرن الماضى ، وأخذنا بها يزداد ويشتد من يوم إلى يوم ، لا نستطيع غير ذلك ولا نملك العدول عنه . ولو قد حاولنا هذا العدول لهلكنا .

وإنما أريد أن يطمئن المشفقون والخائفون ، وأن يقبلوا عن رضى وأمن على هذه الحضارة التى يقبلون عليها عن إشفاق وخوف . وإنى لأعرف هذا الرجل الصالح الكريم من هذه البيئة المحافظة أو تلك الحضارة الأوربية أشد الانكار وهو غارق فيها إلى أذنيه . يتقلب فيها إذا أصبح ، ويتقلب فيها إذا أمسى ، ويدفع إليها أبناءه وبناته دفعًا . وإنى لأعرف قومًا كرامًا صالحين كانوا ينكرون السفور واختلاط الفتيان والفتيات ، يجهرون بهذا الانكار ويجاهدون فى سبيله ، وبناتهم يذهبن إلى المدارس وإلى المدارس الأجنبية ويتخذن من الأزياء ما ليس بينه وبين الحجاب صلة !

أنا إذن لا أدعو فى حقيقة الأمر إلى شيء عملى ، وإنما أدعو إلى شيء نفسى . أدعو إلى أن تطمئن قلوب هؤلاء الأخيار وتستريح ضمائرهم وتتم الملاءمة بين ما يقولون وما يعملون وما يعتقدون . وإلا فمن السخف أن ندعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وقد دخل الراديو فى الأزهر الشريف وقام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث به إلى المسلمين فى أقطار الوطن جميعًا .

ومن السخف أن أدعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وقد دخلت علوم هذه الحضارة وفنونها فى الأزهر وانتشرت بعوث الأزهر فى عواصم أوربا لتتلقى العلم والفن على الأساتذة الأوربيين .

كلا . إنى أحمد الله على إنى لست من الغفلة بحيث أدعو جادا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية بعد أن فتحت هذه الحضارة قلعة المحافظة فى الشرق وهى الأزهر ، وبعد أن أصبح الأزهر مسرعًا إلى هذه الحضارة يدفعه إسراعه إلى شيء يشبه الاسراف إن لم يكن هو الاسراف ، وبعد أن أصبحت الجامعة المصرية وهى وليدة الحضارة الحديثة تميل إلى شيء من المحافظة اجتنابًا للطفرة وإشفاقًا من الجموح وإمساكًا للتطور فى حركة معقولة هادئة تمكننا من أن نرقى عن روية وفهم لا عن تهور واندفاع .

إنما أريد كما قلت غير مرة : أن نلائم بين آرائنا وأقوالنا وأعمالنا ، وألا ننكر الحضارة الأوربية ونحن مقبلون عليها وغارقون فيها .

أريد أن نصارح أنفسنا بالحق وأن نبرئها من النفاق ، وأن نقبل على هذه الحضارة الحديثة باسمين لا عابسين ، ففى ذلك راحة للضمائر وأمن القلوب ، وفيه قبل كل شىء وبعد كل شىء تمكين لنا من أن نأتى البيوت من أبوابها ، ومن أن نواجه الأمور فى قوة وعزيمة بدل أن ندور حولها مستخفين متنكرين .

ولست أدرى أمخطىء أنا أم مصيب . ولكنى أوثر إذا أردت شيئًا أن أسعى إليه جهرة وفى وضح النهار لا أن أسعى إليه سرا وفى ظلمة الليل !